التلفاز وأثره في الطفل ولغته

نور الهدى لوشن
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والعلوم، جامعة الشارقة
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

الخلاصة

يطرح هذا البحث إشكالية تأثير التلفاز في الطفل ولغته، ويبين الانعكاسات الأخلاقية والتربوية وما ينجم عنها من مخاطر في تقليد الأدوار والسلوك. كما يقف على الأسباب والمؤثرات، ويسلط الضوء على مكمن الدّاء، معرّجاً على المواقف والنماذج، مقترحاً الحلول التي يرجى الأخذ بها للوصول بالطفل ولغته إلى برّ الأمان.

ABSTRACT

This paper examines the impact of TV on children’s Language as well as on their moral values. The paper also explores the dangers of the habits and behavior children usually imitate from TV, and how such dangers can threaten the entire society, culture, and identity. Believing that language is the embodiment of culture, civilizations, and even our humanity, the researcher attempts to offer some practical remedies to this danger which has started to plague the current generation and probably those yet to come.

تمهيد:

قال توفيق الحكيم في سنة ١٩٧٧م عندما بدأ يسجل بعض الحكايات للأطفال: "إن البساطة أصعب من التعمق...وإنه لمن السهل أن أكتب وأتكلّم كلاما عميقا، ولكن من الصعب أن أنتقي وأتخير الأسلوب السهل الذي يشعر السامع بأنّني جليس معه، ولست معلّما له، وهذه هي مشكلتي مع أدب الأطفال"(١) .

إن توفيق الحكيم يجزم أن البساطة أصعب من التعمق، وبنى عليها مشكلته مع أدب الأطفال. ترى ما الذي قدمناه أو نقدمه للطفل في عالمنا العربي؟! وهل لبينا النّداء؟...

إن أحمد نجيب يرى أن تلبيتنا تلبية يسيرة تستجيب على استحياء لنداءات أدب الأطفال في بلادنا... ويتساءل: هل ترتفع هذه الاستجابات"بأدب الأطفال إلى مستوى مسؤولياته الكبرى كأداة رئيسية في بناء شخصية صنّاع المستقبل في القرن الجديد؟!" (٢) .

إن أدب الطفل لا يختلف عن أدب الراشدين من ناحية البناء النّصي قصة أو مسرحا، أو شعرا، أو عملا إعلاميا، كما أن أهدافه واحدة، فهو يقدم المتعة الجمالية والتسلية إلى جانب كثير من القضايا والقيم.

ومن شروط أي عمل يقدم للطفل أن يكون رفيع المستوى، وأن يتمتع بقدرة حقيقية على إثارة خيال الطفل وتحفيز آليات التفكير لديه، وتمكينه من تنمية قدراته اللغوية، وأن يعالج أي موضوع مقدم إلى الطفل بما يتناسب ومقدرات الطفل اللغوية ومدركاته العقلية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. بالإضافة إلى ما يتناسب ومرحلته العمرية.

ولا شك في أن هذا يقتضي تمثلا حقيقيا لعوالم الطفولة بلغتها المتميزة، وبساطتها، وخيالها الممتع، وبهذه الخصائص، و في ظلّ التخطيط في قطاع ثقافة الأطفال، يصل إلى تحقيق هدفه المنشود إذا أمكنه التنسيق بين مختلف المجالات، واستطاع أن يتجنّب التّعارض والتكرار، فإذا ضمن الوصول إلى نوع من التكامل والتعاون في ظل حصر الإمكانات والموارد البشرية والمادية استطاع آنذاك الوصول إلى تحقيق الأهداف الموضوعة في المجالات المختلفة.

إن الوصول إلى تحقيق الصورة المثلى لروافد الطفل ترتكز على الدعائم الآتية:

١- الربط بين مختلف الوسائل التي يصل أدب الأطفال عن طريقها إلى جمهوره (الكتاب-الإذاعة-التلفاز-المسرح-السينما-الأسطوانة-المجلة-الإنترنيت) ...

٢- الربط بين مختلف الطاقات البشرية التي تعمل في المجالات المذكورة آنفا.

٣- الربط بين ألوان الإمكانات المادية والموارد المتاحة لهذه المجالات.

٤- الربط بين الجمهور الذي يقدم له الإنتاج، وهو جمهور الأطفال.

٥- الربط بين من تهمهم العمليات السابقة كلها، بحكم ارتباطاتهم المختلفة وهم: الآباء والأمهات، ورجال التربية والتعليم، والمختصون الاجتماعيون.

والذي يجب أن نضعه نصب أعيننا هو أن الهدف المنشود لا يتحقّق بمجرد وضع كتاب أو قصة أو مسرحية، أو أغنية؛ وإنما يشمل بالضرورة إخراج هذا العمل

بصورة مناسبة، مع العلم بالأساليب والنظريات اللازمة، والاستناد إلى مجموعة المعارف والخبرات التي تتعلق بطبيعة العمل.

يجب أن نعرف لمن نكتب، وماذا نكتب، وكيف نكتب؟. هناك جملة من المسائل لا بد لكاتب أدب الأطفال أن يتوقف عندها ولعل أهمها **مراعاة المرحلة العمرية** التي يخاطبها الكاتب والمراحل النفسية التي تميز كل مرحلة، لقد أكّد علماء النفس أن خيال الطفل ومدركاته تتطور من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى، وتخضع في ذلك للحصيلة المعرفية، والمعلومات المختلفة، ولتفاوت البيئة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية للطفل، فثقافة المجتمع وتقاليده المؤثّرة في الطفل تختلف من بيئة إلى بيئة أخرى، وبناء على ذلك تنشأ الفروق انطلاقا من اللغة وانتهاء بالثقافة العامة.

وعلى الرغم من ذلك كلّه هناك جملة من المصادر تجمع على تعميم عناصر عامة مشتركة لكلّ مرحلة عمرية تأخذ بيد الكاتب وتساعده على الولوج إلى عالم الطفولة وإدراك ما في داخلها. هذه المراحل صنّفها لنا د. هادي نعمان على النمط الآتي:

١- مرحلة الواقعية والخيال المحدود بالبيئة من (٣-٥) سنوات، وهي المرحلة التي تكون فيها حركة الطفل محدودة في إطار منزل العائلة والمحيط الصغير بما يحمله من دمى وملابس وطعام وحيوانات أليفة تحيا قريبا منه... والطفل في هذه المرحلة كثير الأسئلة، يقلّد ويحاول التطبيق...ومن أهم عناصر هذه المرحلة: الإيقاع، والصوت، والحركة، والألوان. أما من حيث اللغة، فالاهتمام-في هذه المرحلة عند الطفل-ينصب على موسيقا الكلمات والعبارات المسجوعة، وفي هذه المرحلة لا تناسب الأطفال قصص الجن والسحرة، والخوف والعفاريت، أو ما يثير القلق والحزن لديهم.

٢- مرحلة الخيال المنطلق من (٦-٨) سنوات، وهي المرحلة التي ينمو فيها الخيال ويزداد ولع الطفل بالقصص الخيالية التي تخرج مضامينها من محيطه وعالمه...وينبغي على القصص الموجهة لهذه الرحلة أن تراعي المغامرات.

٣- مرحلة البطولة من (٨-١٢) سنة، وهي المرحلة التي ينتقل فيها الطفل نحو الاهتمام بالحقائق، وتستهويه قصص الشجاعة والمخاطرة والعنف، والمغامرة، وسير الرحالة، والمكتشفين، هذا بالإضافة إلى القصص الهزلية والقراءات المبسطة وكتب المعلومات.

٤- المرحلة المثالية من (١٢-١٥) سنة، وهي مرحلة الاستقرار العاطفي النسبي، وهي مرحلة دقيقة وحساسة، يميل فيها الطفل إلى القصص التي تمتزج فيها

المغامرة بالعاطفة، وتقل فيها الواقعية، وتزيد فيها المثالية؛ فالشخصيات الرومانتيكية ستكون جذابة، وكذلك القصص البوليسية والجاسوسية والحب.

يجب أن نكون على وعي تام بما نقدمه للطفل، فالهدف المنشود لا يتحقّق بمجرد كتابة قصة أو مسرحية، أو أغنية؛ وإنما يعتمد اعتمادا كليا على إخراج هذا العمل في صورته المناسبة للطفل. مع العلم بالأساليب والنظريات اللاّزمة لذلك.

إن مجموعة المعارف والخبرات التي تتعلق بطبيعة العمل يجب أن تقوم على معرفة لمن نكتب؟ وماذا نكتب؟ وكيف نكتب؟كما يجب أن نكون على وعي كامل بمراحل النمو عند الطفل، وأن نحيط علما بطبائع الأطفال الذين نكتب لهم والمراحل النفسية التي تميز كلّ مرحلة. ...

ماذا نكتب؟ في ميدان القصة تختلف الاعتبارات الفنية والتربوية في أنواعها، فمن الفكاهة والخيال وقصص الأساطير والخرافات، إلى القصص التاريخية والجغرافية والعلمية وقصص المغامرات والأبطال وحياة المشاهير والعظماء والعلماء والمخترعين... ومن قصص الحيوانات الناطقة والقصص العالمية المبسطة، إلى غير هذا وذاك من أنواع القصص التي يزخر بها عالم الأطفال.

أما المسرحيات فتكون تثقيفية تعليمية أخلاقية [٤] . هذا بالإضافة إلى الشعر وبرامج الإذاعة والمواد الصحفية، وأفلام الكرتون، والسينما.

أما الإجابة عن سؤال كيف نكتب؟ فيجب مراعاة مجموعة من الاعتبارات:

١- الاعتبارات التربوية والنفسية.

٢- الاعتبارات الأدبية.

٣- الاعتبارات الفنية والتقنية المتعلقة بنوع العمل، كتاباً كان أو مسرحا أو وسيلة إعلام.

في ضوء هذا كلّه يمكننا أن نعيد التساؤل عما يمكن أن يقدمه أدبنا من قضايا للطفل؟ قد يتخذ أدب الطفل مسارا وعظيا مباشرا لا يختلف عن أي درس يتلقاه الطفل في المدرسة، والأطفال يفضلون الحكايات والمشهد البصري الفائق والخيال الممتع. بالإضافة إلى الملحوظة التي يؤكدها جلّ علماء النفس والتربويون؛ وهي أنه علينا ألا نشعر الطفل أننا نقف منه موقف الناصح الواعظ المرشد.

والطفل في أغلب مجتمعاتنا العربية إذا لم نقف منه هذا الموقف فهو مهمش ومبعد ومستخف برأيه؛ لذلك ينتظر بفارغ الصبر أن يصبح كبيرا حتى يتخلص من هذه المرحلة الشائكة، في الوقت المفترض به أن يكون أكثر متعة وسعادة فيه.

ومادام هذا هو حال الأطفال في مجتمعاتنا-وكما أسلفنا القول الأطفال يفضلون الحكايات والمشاهد البصرية والخيال الممتع- فإن ملاذهم في ذلك هو التلفاز. **فما أثر ذلك الجهاز في الطفل؟وفي لغته التي يتحقق من خلالها وجوده الاجتماعي؟** "فكما أن وظيفة الجسم الإنساني هي تحقيق الوجود البيولوجي للفرد، نجد وظيفة اللغة هي تحقيق الوجود الاجتماعي للفرد نفسه" (٥) ، "ويعتبر السلوكيون أن اكتساب اللغة عند الطفل يندرج ضمن إطار نظرية التعلّم، فاللغة بتصورهم شكل من أشكال السلوك. لذا لا يفرقون بوجود أي تباين بين مسار تعلمها ومسار تعلم أي مهارة سلوكية أخرى" (٦).

وإذا كانت مهارات الأطفال اللفظية والمعرفية هدفا لبعض البرامج فإن أكثرها ليس كذلك، ولم تعرض للهدف ذاته. ففي دراسة قام بها فريق بحث من مؤسسة (راسل ساجا) في الولايات المتحدة الأمريكية لمعرفة أثر برنامج "شارع السمسم" أكدت النتائج أن مهارات الأطفال اللفظية والمعرفية-والتي كانت هدفا للبرنامج- لم تتقدم تقدماً ملموساً، وأن الأطفال في سن ما قبل المدرسة"لم يحصلوا على مكاسب تعليمية حقيقية، فالأطفال حتى سن الرابعة قد يكونون مأخوذين ببعض البرامج إلا أن مقدرتهم على الاستيعاب والفهم أمر غير مؤكد بل غير وارد...ويجمع الباحثون على سلبية النتائج التي نجمت عن مشاهدة الأطفال للتلفزيون" (٧) .

نستنتج أن المكاسب التعليمية الحقيقية التي تهدف إلى التركيز على المهارات اللغوية لدى الأطفال لا تؤتي أكلها إلا إذا كانت البرامج الموجهة إلى الأطفال تضع في حسبانها المراحل العمرية للطفل ومتطلبات كل مرحلة. ويؤكد الخبراء "أن مرحلة الاستقرار اللغوي تبدأ من سن السادسة أو السابعة أو الثامنة تبعا لاختلاف الأفراد، وبدخول الطفل في هذه المرحلة تستقر لغته وتتمكّن من لسانه أساليبها الصوتية، وترسخ لديه طائفة كبيرة من العادات الكلامية الملائمة لطبيعته الخاصة" (٨) .

ولاكتساب الطفل للغته عوامل يمكن إجمالها فيما يأتي:

١- وضوح الإحساسات السمعية وتمييزها بعضها من بعض.

٢- القدرة على حفظ الأصوات.

٣- فهم الطفل لمعاني الكلمات قبل استخدام اللغة.

ولا ننسى في ذلك كله أثر النظر في التقليد اللغوي، و "ترى طائفة من الباحثين...أن، لحاسة النظر دخلا كبيرا في التقليد اللغوي، وأن رؤية الطفل لشفتي المتكلم وحركتهما، وعمله على محاكاة هذه الحركة، وإخراجه الصوت الذي يتلاءم معها، يساعده على إجادة عملية التقليد ويذللها له، وأن هذه الرؤية لا تقل أثرا بهذا الصدد عن العوامل التي ذكرناها" (٩) . هذا بالإضافة إلى محاكاة الطفل للآثار التي تسبق تقليده للصوت نفسه، وهي تهيئ له عنصرا هاما من عناصره...فالأعمى يقضي في كسب اللغة مدة أطول من البصير. والأصم يمكن تعليمه اللغة عن طريق تحريك أفواه المتكلمين.

إن هذه العوامل السالفة الذكر تتجسم فعاليتها من خلال التلفاز، هذا الجهاز الذي ارتفعت أصوات الاحتجاج منددة به في المجتمعات كلّها ساخطة على آثاره السلبية، فهو يرتبط- في نظر كثير من البلدان الغربية-بارتفاع نسبة الجريمة، وتحطيم القيم الاجتماعية وقتل الإبداع...إنه حجر عثرة وعقبة كأداء أمام جهود التربية والتعليم، وهدم وتحطيم المكتسبات والإنجازات الاجتماعية والتربوية التي يهدف إليها المجتمع.

وإذا كان هذا هو لسان حال الدول الغربية، فما وضعنا نحن -العرب-؟ وما موقفنا؟

إن التلفاز يفرض سيطرته الثقافية شئنا أم أبينا، والمجتمعات الفقيرة ودول العالم الثالث التي لا تستطيع أن توفّر للطفل أماكن التسلية والنوادي تجعل الأطفال يتجهون إلى التلفاز؛ فهو ملاذ الذين يعانون من عدم الاستقرار الداخلي وعدم التكيف الحسي والمزاج المتقلب والمغلق؛ إن التلفاز-لهؤلاء- وسيلة هروب إلى عالم واسع من الخيال والتصورات الغريبة.

إن الطفل في مثل ظروف هذه المجتمعات يتقمص الشخصيات في مختلف الأدوار التي يشاهدها، فإما أن يعيش في الخيال وإما أن يحاول تقليد ذلك على أرض الواقع، والخطر كلّ الخطر إذا قلّد الرذيلة والإجرام.

يتفق الباحثون (١٠) في شؤون التلفاز والطفل على مقدار الأثر العميق الذي يتركه التلفاز في سلوكيات الطفل وتوازنه الثقافي والنفسي...ففي الستينيات كان يعتقد أن التلفاز يمكن أن يشكّل مؤسسة للتعليم والتثقيف؛ لكن بحلول السبعينيات تغيرت الرؤية وأصبح ينظر إليه بوصفه مؤسسةً منتجة للترفيه والفرجة (١١) .

إن تلفزيوناتنا العربية تتخذ تلفاز أوروبا وأمريكا نموذجا ناجحا في إخضاع التلفاز لمتطلبات السوق، فالمنافسة الشديدة التي فرضتها القنوات الأجنبية على القنوات العربية أحدثت قطيعة وفجوة كبيرتين في ثقافتنا وتقاليدنا، وعلى رأس ذلك كلّه-

طبعا- اللغة، ففي مقال بعنوان (الفضائيات الخطر الجاثم في بيوتنا) أظهر كاتبه أن "أكثر الفئات تأثرا بهذه الفضائيات هم الأطفال، جيل الغد" [١٢] .

ويرى الدكتور حميد ناصر الزري مدير منطقة الشارقة التعليمية أن أهم أسباب تدني مستوى اللغة العربية على ألسنة النشء والصغار يرجع إلى عوامل عدة منها: المسلسلات والأفلام الناطقة باللهجات المحلية، فضلاً عن طغيان اللغة الإنجليزية وانتشارها الذي يؤدي إلى انحسار اللغة العربية [١٣] .

وفي هذا المجال نود أن نهمس بكلمة وهي: هل نلقي اللوم كلّه على التلفاز والقنوات الفضائية أو أن هناك جهات أخرى؟ إننا بهذه الكيفية نغيب -تماما- أثر الأسرة، أين الأسرة من هذا كلّه؟ وما أثر الوالدين في هذه الحالة؟

على الأسرة أن تقوم بمهمتها في التخفيف من حدة الآثار المدمرة للفضائيات.

وأن تمنع الأطفال من مشاهدة التلفزيون إلى ساعات متأخرة من الليل، وبالمراقبة والإشراف الجيد، والتوازن المطلوب، في ظلّ مقومات المجتمع المسلم.

وبالتوجيه السديد نضمن لأطفالنا السلوك الاجتماعي القويم، ومنه السلوك اللغوي. وإذا أدركنا أن التلفاز يقوم بمهمة تشكيل عقول الناشئة وتوجيه أذواقها ألزمنا ذلك بضرورة الاهتمام بما يبثّ من خلاله. وإذا أدركنا أن الطفل مقلّد لما يشاهد، تحتّم علينا معرفة أن ذلك يرتد على سلوكه بأكمله، وعلى رأس ذلك **اللغة**.

فإذا كان الطفل يشاهد العنف والجريمة تمثّل ذلك، وإذا كان يشاهد الأغاني قلّدها، ويمكنني أن أضرب أمثلة على ذلك. ففي الجزائر في فترة الإرهاب -كما تسمى- وما ألحقته من مرارة بالمجتمع الجزائري، وفي غفلة من الأهل عن وعي أو عن غير قصد، بات الأطفال يتابعون ما تبثّه القناة الجزائرية من أحداث وما يجري في المجتمع، فراح الأطفال يقلّدون ما يشاهدونه، فأصبحت ألعابهم وعوالمهم كلّها عنفا وإرهابا، تسبب في حوادث كثيرة، ولم يعد في قاموسهم اللغوي سوى الألفاظ المصاحبة لذلك، والتي تظهر أنماط سلوكهم.

فلو حاولت أن تقف على قاموسهم اللغوي-في تلك الفترة- لوجدت أن تأثير ما يشاهدون هو المسيطر على لغتهم (العنف- القتل-الدم-الإرهاب-الموت-الرصاص-الانفجار) . وهذا يؤكّد حقيقة أن "**اللغة وعاء الفكر**"، وإذا سيطرت أمور على أفكارنا انعكست-لا محالة- على لغتنا. وهذا يبرهن على أن الطفل مرآة عاكسة لما حوله؛ فهلاّ أعددنا العدة لذلك؟ وتوخينا الأسباب التي تمنحنا طوق النجاة؟.

أما في مجال الأغاني، وبتأثير القنوات الفضائية العالمية والوطنية معا فقد أصبح الأطفال يرددون أغاني الكبار، ويقومون بالحركات ذاتها التي يقوم بها المغنون والمغنيات فضلا عما يصاحبها من رقص وحركات...ترى لو استبدلنا بهذه الأغاني أغاني الأطفال والبرامج الموجهة، ما الحصيلة اللغوية التي نحصل عليها في النهاية؟.

وأقارن ما أسلفت ذكره بتأثير التلفاز قبل غزو الفضائيات، عندما كانت تذاع المسلسلات باللغة العربية الفصحى، وتعرض برامج الأطفال الترفيهية التثقيفية، لقد كان الطفل يقلّد ذلك، ويكون معجبا بلغته وبتوظيفه اللغة الفصحى، فإذا طلبت منه أن يغني أغنية قرأ لك نشيدا أو أسمعك شيئا للأطفال، أما الآن فاطلب من أي طفل في أي موضع أومكان من وطننا العربي أن يغني أغنية، فلن تجد ترديدا إلا لما تبثه القنوات العربية من مسابقات على الهواء وغيرها...باستثناء النزر القليل.

وعلى الرغم من هذا كلّه علينا أن نعترف أن لهذا الجهاز سرعة في الانتشار وسعة في النفوذ، و"من ثمة تأثيره في مجال تنمية اللغة على أساس أنها الوسيلة الأولى التي يتم بها توصيل المواد الإعلامية والثقافية، وربما المواد الترفيهية-أيضا-...في التلفاز تشترك الصورة والنّغم والحركة في توصيل المعلومات، ويشترك سمع المشاهد وبصره في التقاط هذه المعلومات، وعن طريق المشاهدة قد يتضاعف اكتساب المعارف واكتساب اللغة، والتقاط ألفاظها وتراكيبها المختلفة كنوع أو جزء من هذه المعارف"[١٤] . وإذا تأملنا علاقة التلفاز بالعربية الفصحى وجدنا أنه سلاح ذو حدين. وما يعرض على شاشات التلفاز ليس سيئا برمته، فهناك الجانب الإعلامي التثقيفي الذي يسعى إلى نشر المعرفة وتعميم نفعها، ويوظف وسيلةً لخدمة الأهداف الدينية والوطنية والقومية والإنسانية عامة.

فمازال التلفاز الفرنسي محتفظا بطابعه الثقافي والأدبي، وكذلك التلفاز الإيطالي، ولا يمكن أن ننكر إسهام التلفاز في تشجيع القراءة وفي توسيع انتشار الكتاب، لقد أسهمت برامج (فاصلة، وبين قوسين، وحساء الثقافة) Apostrophe,Entre guillemets,et Bouillon de culture، التي كان يعدها (Bernart pivot) خلال العقود الثلاثة الأخيرة في انتشار الكتاب في فرنسا وفي ترقيته، ولا أحد ينكر أنه أسهم أيضا في زيادة شهرة الكتّاب والمفكّرين وفي رفع شأنهم في المجتمع...كما زاد برنامج (Book club) الذي كان يبثه التلفزيون الأمريكي في عدد مبيعات الروايات... [١٥] .

وفي وطننا العربي من منّا لا يذكر جيدا برنامج الأطفال الرائع "**افتح يا سمسم**" الذي قُدم بالفصحى وكان الإقبال عليه علامة بارزة على سهولة الفصحى ويسر فهمها واستيعاب معانيها.

وهناك القنوات المحافظة الهادفة التي تراعي القيم والأخلاق وتقدم المفيد، مثل (قناة الشارقة الفضائية) ببرامجها المثمرة، وأذكر على سبيل العد لا الحصر ما يتعلق بتحفيظ القرآن وتجويده وحفظ الأحاديث النبوية الشريفة وتفسيرها، وبيان أثر ذلك في الفرد والمجتمع، فضلاً عن البرامج التثقيفية الموجهة للأطفال.

وقناة (اقرأ) الفضائية التي تنتقي ما تقدمه للأطفال في كلّ برامجها. ولا نغفل الصور المتحركة (أفلام الكرتون) في القنوات العربية كافة، وكذلك البرامج المخصصة للطفل مثل (عالم الأطفال) في القناة الفضائية المصرية، وبرامج فترة الأطفال في تلفزيونات دول المغرب العربي، ولا شك في أن القنوات العربية في مجملها تراعي ما يقدم للطفل بمقتضى ما تسعى إليه في هذا المجال. المهم أن ندرك أن العمل الإيجابي ينعكس على الطفل وعلى لغته بالإيجاب والقبول.

إذن بإمكان التلفاز أن يسهم بدور كبير في تقويم لسان الطفل العربي من خلال الحرص على استخدام الفصحى والارتقاء بها، وإغناء الحصيلة اللغوية. ويستحسن بل يجب أن تسخر برامج التلفاز وفعالياته ونشاطاته كلّها لخدمة اللغة، بأن تصبح لغة هذه البرامج هي القدوة في الثراء، وأن يكون المذيع العربي معيارا للصواب اللغوي [(١٦)] .

وإذا كان التلفاز بهذه الخطورة فلماذا لا نجنّد له كلّ الطاقات لنبرهن على أننا قادرون، ولنسجل في التاريخ آثارنا، ونرجع لأطفالنا ثقتهم بأنفسهم وبلغتهم التي هي كيانهم ووجودهم، ونعمل على تطوير الأساليب؛ ليتحول هذا الإحجام –في دراسة اللغة العربية- إلى إقدام، ويغدو النفور رغبة، بل رغبة ملحة؛ لأن الذنب لا يلقى على عاتق اللغة العربية، بل على من يحملها ويمثلها، ومهما تتعال الأصوات المنددة باللغة العربية، وترفع شعارات التخلّي عنها بحجة أنها لا تستوعب العلوم ولا تواكب العصر.

ويمكننا أن نجيب هؤلاء بأن الذنب..."ليس ذنب اللغة وقدرتها على استيعاب العلوم والفنون وإبداع المصطلحات، وإنما ذنب الأمة المتخاذلة المتخلفة العاجزة عن الامتداد والنمو العلمي، الأمر الذي انتهى بها إلى العيش على موائد الآخر، الذي لا بد أن تأكل طعامه، وتستهلك أشياءه، وتتكلم بلسانه، وتفكر بعقله، وتعفي نفسها من المسؤولية وبذلك تسهم بإخراج لغتها من الحياة، لأن اللغة كائن ينمو مع الأمة، ويتوقف ويتضاءل حال موتها أو سباتها..." [(١٧)] .

وفي السياق ذاته يقول الدكتور عبد السلام المسدي: "في إطار رصدنا للدور الذي تؤديه وسائل الإعلام نقول: إن الممارسات اللغوية لهذه الوسائل قد انحدرت-في بعض إن

لم يكن في معظم الأحيان-إلى حد ارتكاب ما يمكن أن نصفه بالخطايا اللغوية، وهو بالطبع أفدح من وصفها بالأخطاء اللغوية، ومرد ذلك-في وجهة نظرنا-أن التحديات الراهنة التي تجابهها أمتنا العربية-تحتم-أو هكذا ينبغي-أن نتسلّح بكلّ أدواتها لتواجه غزو العولمة التي يريد أصحابها أن يقنعوا الآخرين بأنها قدر محتوم لا مناص منه. وأول هذه الأدوات الحفاظ على لغتنا العربية، ذلك أننا نذهب مع القائلين بأن سلاح الكونية الثقافية الغازية إنما هو اللغة ومنالها الأخير إنما هو اللغة، فباللغة تغزو لتكتسح قلعة الهوية الثقافية باختراق سورها ثم بنسفها من الداخل، وما سورها المسيج لها إلا اللغة"(١٨).

ويمكنني أن أسوق بعض الشواهد التي تدعم الموقف وتقويه.: بعد استقلال الجزائر ظلت اللغة الفرنسية مسيطرة -وبخاصة في السنوات الأولى من الاستقلال- وأذكر جيدا البرامج التي كنا ندرسها في المدارس الابتدائية؛ كانت ركيزتها وأساسها اللغة الفرنسية، وكانت كلّ الطاقات مسخّرة لخدمتها وتحبيبها للتلاميذ. وفي منتصف الأسبوع يعرض فيلم سينمائي الغاية منه توصيل اللغة بكيفية مكملة لما يعرض في الدروس داخل الفصول، وترسيخ الأفكار بوساطة اللغة، واللغة وعاء الفكر. ومادام كذلك كيف نتصور هذه الأجيال؟ ما فكرها؟ ما هويتها؟ وبصورة أوضح ما لسانها الذي هو ترجمان فكرها؟ وحامل حضارتها وحاويها؟

المثال الثاني الذي أحببت أن أسرده هو رد الجنرال (دي غول) على زعماء ثورته –عندما هموا بالخروج من الجزائر بعد الاستقلال وكانوا متذمرين في ألم ويأس شديدين-قائلين: - كيف نخرج من بلد بنيناه وشيدناه وألقينا رواسينا فيه؟ فكان رده: من قال إنّنا خرجنا من الجزائر، إنّنا متغلغلون فيها حتى النخاع؛ لأنّنا نشرنا لغتنا، فلا خوف علينا طالما نحن في اللغة؛ واللغة هي الفكر فمن قال إنّنا خرجنا؟!

كما أود أن أذكّر بشاهد آخر على قيمة اللغة: عندما سأل الإمبراطور الصيني الحكيم (كونفوشيوس) عن أقوم السبل إلى إصلاح الإمبراطورية، فقال له: **ابدأ باللغة**. نعم قال له: ابدأ باللغة ولم يقل له ابدأ بالاقتصاد. فهلا اعتبرنا؟!.

وخلاصة القول: إن قلب الأمة ينبض في لغتها، وروحها تكمن فيه، والمسؤولية الملقاة على عاتقنا ليست هينة، ومستقبل أطفالنا رهن أيدينا، ولغتنا أمانة يجب المحافظة عليها وحمايتها من الأخطار الداهمة في عالم غزته الفضائيات، وتقاسمته اللغات والأفكار المتباينة، عالم تتجاذبه العولمة والتيارات المتناقضة، وطغى عليه التجدد والتغير اللانهائيان. فنحن الآن في أشد الحاجة إلى طرح تساؤل دائم: **ماذا قدمنا لهذه اللغة؟ ولأطفالنا من خلالها؟وما المطلوب منّا؟.**

فلو امتلكنا ناصية لغتنا، وارتكزنا على ركائز سليمة قوية يدعمها ديننا الحنيف وتغذيها مبادئه السامية وتعاليمه القيمة، ويتوج ذلك كلّه بثقتنا بأنفسنا واعتزازنا بلغتنا؛ فهي هويتنا ووجودنا، لحقّقنا المراد، علينا أن نضع نصب أعيننا أن حضارة الأمم تكمن في لغتها، وأننا مسؤولون أمام ا تعالى وأمام التاريخ عن هذه الوديعة، وعلينا مدها بالزخم المعرفي اللائق بها لتتمكّن من مسايرة الركب الحضاري.

إن التاريخ والفلسفة والإنسان بكلّ خصائصه ومقوماته؛ بل الحضارة برمتها تكمن في اللغة، ولا وجود لفكر دون لغة، لقد أقر (جاك لاكان): بأن الإنسان هو اللغة، وذهب (شتراوس) إلى الاعتقاد بأن النشاط الرئيس للذهن هو العملية الرمزية التي تتمثل في اللغة...كما لاحظ (لوميير) وهو يحدد منهج (لاكان): أن معرفة العالم ومعرفة الآخرين؛ بل الذات يحددها اللسان... (١٩) .

وإذا أدركنا ذلك كلّه وأخذنا بالأسباب ووظّفنا الأدوات اللازمة للعمل –لا شك- حقت لنا الريادة، وانقادت لنا الأماني، قال تعالى: "**إن ا لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**" (٢٠) .

الهوامش

(١) د. هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، عالم المعرفة الكويتية، العدد١٢٢، ١٩٨٨م، ص١٥٧.
(٢) أحمد نجيب، أدب الأطفال علم وفن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢-١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ص١٩.
(٣) د. هادي نعمان، المصدر السابق، ص١٥٩.
(٤) أحمد نجيب، المصدر السابق، ص٢١. وينظر: Moncef Chelli,la parole Arabe, une Theorie de la relativite des Cultures, La bibliographie arabe, 1980,Paris, pp 432-434.
(٥) د. تمام حسان، العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٧٩م، ص٣٣.
(٦) د. ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام) ، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. فصل: النظرية السلوكية واكتساب اللغة عند الطفل، ص١٢٩.
(٧) د. حسن قايد، التلفزيون والطفل، مجلة الرافد، العدد٨١، ربيع الأول١٤٢٥هـ-مايو٢٠٠٤م، ص١٨.
(٨) د. علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ط٩، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، د. ت، ص١٥٠.
(٩) د. علي عبد الواحد وافي، المصدر السابق، ص١٥٤.
(١٠) ينظر: جون كورنر، التلفزيون والمجتمع، الخصائص، التأثير، النوعية، الإعانات، ترجمة: أديب خضور، المكتبة الإعلامية، دمشق، ١٩٩٩م، ص٢٤٠.

(١١) ينظر: نصر الدين العياضي، المادة الثقافية في التلفزيون، صراع التقنية والترفيه، مجلة الرافد، المصدر السابق، ص٢٦.
(١٢) عبد القادر الجعفري، الفضائيات الخطر الجاثم في بيوتنا، الفتح، العددان، ١٦-١٧ السنة الثانية، ذو القعدة/ذوالحجة١٤٢٢هـ، ص٧.
(١٣) عبد القادر الجعفري، المصدر السابق، ص٧.
(١٤) د. رشاد سالم، اللغة العربية والإعلام، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ص٧٩.
(١٥) د. نصر الدين العياضي، مصدر سابق، ص٢٧.
(١٦) ينظر: أحمد مختار عمر، أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص١١.
(١٧) د. رشاد سالم، مصدر سابق، ص٨٤.
(١٨) د. عبد السلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، سلسلة كتاب سطور٦، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٨٨.
(١٩) د. نورالهدى لوشن، تجدد اللغة مرهون بأصحابها، وقائع مؤتمر: اللغة العربية أمام تحديات العولمة، الدورة الأولى، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٩٠. .
(٢٠) سورة الرعد، آية١١.

المصادر والمراجع:

أ- الكتب:

- أحمد نجيب، أدب الأطفال علم وفن، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م)، ط٢.
- أحمد مختار عمر، أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين، (القاهرة: عالم الكتب، ١٤١١هـ-١٩٩١م)، ط١.
- تمام حسان، العربية معناها ومبناها، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، ط٢.
- جون كورنز، التلفزيون والمجتمع، الخصائص، التأثير، النوعية، الإعلانات، ترجمة: أديب خضور، (دمشق: المكتبة الإعلامية، ١٩٩٩م) .
- رشاد سالم، اللغة العربية والإعلام، (القاهرة: الدار الإعلامية للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م) ، ط١.
- عبد السلام المسدي، العولمة والعولمة المضادة، (القاهرة: سلسلة كتاب سطور٦، ١٩٩٩م) ، ط١.
- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، (الفجالة-القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د. ت) .

ب- الدوريات

- حسن قايد، التلفزيون والطفل، مجلة الرافد، ربيع الأول ١٤٢٥هـ-مايو ٢٠٠٤م، عدد٨١، الشارقة.

- عبد القادر الجعفري، الفضائيات الخطر الجاثم في بيوتنا، مجلة الفتح، السنة الثانية، ذو القعدة/ذو الحجة ١٤٢٢هـ، العددان، ١٧-١٨.
- نصر الدين العياضي، المادة الثقافية في التلفزيون، صراع التقنية والترفيه، مايو٢٠٠٤م، العدد٨١، الشارقة.
- نورالهدى لوشن، تقدم اللغة مرهون بأصحابها، وقائع مؤتمر: اللغة العربية أمام تحديات العولمة، الدورة الأولى، ٢٠٠٢م، ط١، بيروت.
- هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، مجلة عالم المعرفة الكويتية، ١٩٨٨م، العدد ١٢٢، الكويت.

ج -كتب أجنبية

-Moncef Chelli,la parole arabe,une Théorie de la relativité des cultures,la bibliographie arabe,1980,Paris.

د -مواقع إلكترونية يمكن الرجوع إليها في الموضوع: -

www. alshamsi. net
www. almoslim. com
www. bab. com
www. alwatan. com